دكتور سهيل البارع في تحليل النفس البشرية، يضع يده على جراحها ويبريها، بات ضحية جراحه الخاصة وروحه المعذبة بين ذكريات الماضي وحالة مستعصية.

طفلة الحاضر إستحوذت على أيامه، وطيف إمرأة يؤرق لياليه.
من منهما كان بحاجة إلى الآخر هو أم هي؟ ومن منهما أدرك غايته؟
بين دفتي الكتاب أروام معذبة، هل يواتيها الحظ فتهدأ؟

علا
عمان/ 2013

الإهداء

ظروفنا القاسية بآلامها ماهي إلا مخاض ولادة إبداعنا إلى تلك الروح المرفرفة في الأفق تشع بعبق الأمل خلف غيوم معاناتنا، إليكِ .....

ضياء الراشد

مصر- القناطر ٢٠١٢

قرأتك ... فعرفتك ... وأنا لم أعرفك بعد

حساً إنسانياً ... وعاطفة سامية .... يمجد الإنسان ودينه الحب

طالعت محاولات تعبيرية عديدة .... ولم أكمل الكثير منها ....

ولكني عشت مع حلا ورغد في لحظة ممتدة ... توارت عندها ملاحظاتي

أهنئك وأدعو الجميع أن يحتفلوا بالحب والبراءة من خلال الاستمتاع بإبداعاتك ....

أسامة الشيخ

سجن القناطر ... إبريل ٢٠١٢

حلا

يرجى من الدكتور سهيل منصور التوجه إلى مكتب استقبال الخطوط الدولية.. أيقظه هذا النداء من تأملاته، أمن المعقول أن يعود إلى هذه المدينة التي غادرها يوماً وأقسم ألَا يعود إليها؟ هذه المدينة التي لفظته ذات يوم كالمجذوم، ذكريات قاسية مؤلمة، تداعت في رأسه وهو يتجه إلى مكتب الاستقبال بخطىً متثاقلة، وصل إلى هناك استقبلته فتاة في مقتبل العمر سألته مبتسمة :

– الدكتور سهيل؟ الأستاذ فهمي أتى لاستقبالكم وأشارت إلى رجل في الخمسين من عمره، أصلع الرأس قصير القامة. أسرع متمايلاً بكرشه، مد يده مصافحاً:

– يشرفنا حضوركم دكتور سهيل، وأحنى قامته بحركة مسرحية :

– الدكتور رشاد ينتظر وصولكم ويعتذر لعدم مجيئه لاستقبالكم.. تفضل سيدي تفضل.

جلس في المقعد الخلفي وبدأت السيارة تشق طريقها وسط تلك الشوارع الكئيبة، كان يتجنب النظر عبر زجاج النافذة، وكأنه لا يريد أن يرى تلك الشوارع فله في كل زاوية فيها ذكريات مؤلمة.

أقنعه صديقه الدكتور رشاد بالقدوم إلى هنا لعلاج حالة طفلة مريضة بالتوحد، كان الدكتور سهيل الأشهر في علاج مثل تلك الحالات، لم يهتم بالأمر في البداية، عندما شرح له رشاد الحالة عبر الهاتف، لكنه عندما تلقى الملف الخاص بالطفلة عبر البريد الإلكتروني، وقام بدراسته، أثارت لديه تلك الحالة مشاعر خاصة، كانت تشبه حالة عايشها ذات يوم، كانت سبباً لتخصصه بهذا المجال، الطب النفسي للأطفال، تذكرها .. ابنته الوحيدة، ابتسم وهو يسأل نفسه، أين هي الآن؟ منذ أعوام غادرته بثوب زفافها، كانت سعيدة وها هي تزوجت وأنجبت، آه لهذه الأيام تمر بسرعة، بالأمس كانت تحبو لتصل إلى أصيص النباتات، التي كان يعتني بها لتقطع من أوراقها كي تغيظه إذا ما نهرها لأمر ما، كان يدعها حتى تصل إليها ليركض نحوها لتسرع في حبوها ضاحكة، يحملها يضمها إلى صدره يداعبها يتذكر الآن كل شئ حتى رائحتها.

يقطع عليه فهمي ذكرياته: كدنا نصل، هل هي المرة الأولى التي تأتي بها إلى هنا، أجابه : أجل، لكي لا يسترسل في ثرثرته.

الدكتور رشاد زميل دراسته، تعرف عليه سهيل في لندن حيث درسا هناك كان انطوائياً حاد الطباع متزمتاً بآرائه، عندما يتكلم ينتقي كلماته بحذر شديد وعندما يحتد في النقاش يفقد هذا الحذر ليتوقف فجأة ليقول: هل قلت أنا هذا؟ !

لكن سهيل كان من الطلاب المتفوقين، كان اجتماعياً تلقائياً بحديثه وبعلاقاته يخشى الوحدة، يخشى أن يغلق عليه باب، كان دائماً يترك باب مكتبه مفتوحاً عندما يكون وحيداً، ربما لهذا أسباب تتعلق بحياته السابقة.

دخل سهيل مكتب الدكتور رشاد، رآه ينتظره بابتسامته الودودة:

– أهلا سهيل... أخيراً تقابلنا بعد كل هذه السنين، أنا سعيد بلقائك تفضل، أخبرني كيف وجدت المدينة بعد هذا الغياب؟

– كما تركتها لم يتغير فيها أي شيء.

– صدقني لقد تغيرت فيها أشياء كثيرة ستعرف هذا بعد أيام، أقدر استجابتك للحضور لمعالجة تلك الحالة فهي تهمني كثيراً، واستطرد في شرح طريقة علاجه، كان سهيل يصغي إليه بانتباه شديد، قاطعه أكثر من مرة سائلاً عن بعض التفاصيل، وضع أمامه الملف الخاص بتلك الطفلة، أخذه سهيل لكنه لم يعرف سبب تلك الرعشة في يده عندما أخذ ذلك الملف، قاده فهمي إلى الشقة المخصصة لإقامته، كانت عبارة عن شقة كبيرة وجزء منها مخصص كعيادة لاستقبال المرضى.

وضع حقائبه وألقى بجسده المتعب ليستغرق في نوم عميق، لم يعرف سبباً لتلك الأحلام التي أقضت مضجعه تلك الليلة، أهي تلك الذكريات التي تداعت بمخيلته لرؤيته أماكن اعتادها؟ أم تلك الحالة التي أتى لعلاجها؟ استيقظ على صوت قرع حبات المطر لزجاج غرفته، رفع الستائر وفتح زجاج النافذة ليدع الريح تلفح وجهه وقطرات المطر تنهمر عليه لتطفئ ناراً متقدة في الروح، آه لتلك العيون لماذا تطاردني حيثما حللت، حتى في نومي ولماذا أراها دامعة جزعة وكأن فيها صرخة نداء، ترى أين هي الآن؟ منذ أعوام غادرته.. حلا تلك الملاك الحارس الذي رافقته بأحلك أيامه أين هي الآن؟ كم به توق لمعرفة أخبارها، منذ أعوام ودعته عبر الهاتف كان صوتها حزيناً رغم محاولتها لتصنُع الفرح، طلبت منه أن يبارك زواجها فقد قررت أن تتزوج، ومن يومها لم يعرف عنها أي شيء، جميع محاولاته للاتصال بها حتى عبر أقاربها باءت بالفشل، ولماذا تفرض وجودها بذاكرته هذه الأيام. أغلق زجاج النافذة بعد أن ملأ رئتيه بمزيد من الهواء النقي.

أخذ حمامه واتجه إلى المكتب، كانت الساعة الأولى في الصباح، فتح ذلك الملف صعق لما رآه...!! آه لتلك العيون لماذا تطارده بهذا الإلحاح، صورة طفل بالملف، عيناه تشبهان عينيها

!! ترى هل أصبح يرى عيون حلا في كل العيون؟! كان وجهاً طفولياً، وجهاً ملائكياً كوجه قديسة رسم على أيقونه منذ أقدم السنين، لكن العيون كانت عيونها عيون حلا، أغلق الملف وكتب على غلافه (القديسة الصغيرة).

كعادته كان يعطي اسماً رمزياً لكل حالة يعالجها، ألقى برأسه على حافة الكرسي وأطلق لذاكرته العنان، تذكر ذلك اليوم الذي رآها فيه أول مرة . دخلت مكتبه بصحبة شقيقتها التي كانت تعمل لديه، قدمتها له: أختي الصغرى حلا التي كلمتك عنها والتي ستساعدني بالعمل بمكتب الاستقبال، كانت نظراتها شاردة تتحاشى النظر إليه، لكنه أحس بشيء غريب بحضورها، وعندما تحدثت معه أحس بشعور غريب، كشعور من يستمع إلى صوت قداس كنائسي، كان صوتها يرتجف، خجلاً أم رهبة؟! لم يعرف السبب، وعندما خرجت تركت وراءها هالات من نور كان حضورها شيئاً جميلاً يومها.

لم تستمر علاقته بها أكثر من أربع أو خمس سنوات لكنها تركت لديه أثراً كبيراً لم تتركه علاقته بزوجته التي دامت أكثر من عشرين عاماً، لم يحس بالندم لعلاقته بها، لم يحس بالندم ولم يعتبرها خيانة لزوجته لأنه كان يعتبر علاقته بزوجته قد انتهت منذ سنوات وقبل أن يعرفها، دافعه للاستمرار بحياته الزوجية ابنته الوحيدة التي كانت لديه حياته كلها.

عاد إلى الملف. دافع خفي لديه للغوص من جديد في أعماق نفس بشرية عجز الكثير عن سبر أغوارها للوصول إلى معالم تكوينها السوي، فالأعراض المرضية ليست سوى آليات دفاع عن أخطار نتصورها في عقلنا اللاواعي.

الاسم: رغد.

السن: خمسة أعوام.

الجنس: أنثى.

أصغر أشقائها الخمسة.

التاريخ المرضي: لا تعاني من أي أمراض جسدية وليس لديها أي أمراض وراثية، تتمتع بصحة جيدة، لم يظهر لديها أي أعراض جانبية لتناولها أدوية العلاج النفسي، استجابتها لجلسات العلاج (سلبي) تأقلمها بالوسط المحيط بها (سلبي) ترفض الجميع، ذات ميول عدوانية، علاقتها بأمها (سلبي) ترفض الاستجابة لتوصياتها، ترفض عنايتها ولا يوجد بينهما رابط عاطفي، ولا تكترث لغيابها ولو لفترات طويلة، علاقتها بالأب (سلبي) ترفض وجوده أحياناً بالمكان الذي تكون فيه، تخشاه لمعاملته لها بخشونة عندما يضيق ذرعاً بحالتها، يضربها أحياناً، ترفض الانصياع لأوامره، وترفض التعايش بوسطها، لم تتكلم منذ ولادتها ولا يوجد أي سبب عضوي، تتمتع بذكاء حاد، اجتازت جميع اختبارات الذكاء بدرجة ممتازة، تخشى الظلام، ترفض النوم، تبقى مستيقظة لأيام حتى تنهار قواها لتنام ساعات قليلة ونومها مضطرب.

تذكر ابنته، كانت ترفض ارتداء ثياب النوم ويجن جنونها بالظلام، تكره أي شيء يمت للنوم بصلة، لكنها كانت مرحة شقية مطيعة أنيسة استطاعت اجتياز حالة التوحد بفترة علاج قصيرة.

حمل هاتفه ليتصل بالدكتور رشاد فلديه الكثير من الأسئلة حولها لكنه تذكر أنها لم تتجاوز الخامسة صباحاً، نهض ليعدَ فنجاناً من القهوة.

لم يعرف كيف تجاوز خوفه من ممارسة هوايته القديمة الضياع بشوارع هذه المدينة لم يشعر بنفسه إلا وهو جالس على أحد مقاعد حديقة ذلك الفندق الذي كان يقيم معها فيه.

على نفس هذا المقعد كانت تجلس قربه يدها في يده وقال لها: يجب أن تعودي فلم يعد لك أي دور هنا، أيام وسألحق بك لأكون قربك، أجابته: قلت لك مراراً لن أعود إلاّ ويدك بيدي لن أتركك وحيداً وسط هذا الخطر الذي يحيط بك، قبل يومين فقط ودعته زوجته ومعها ابنته،

كانت تعرف كم هو بحاجة إليها، غادرته غير آبهة بما هو فيه من مخاطر، كان مهدداً بالسجن لجرم لفق له، تلك من أقسمت أمام الله أن تكون معه في السراء والضراء، ها هي أخذت أجمل سنين عمره وأخذت كل ما يملك في الدنيا ابنته وغادرته.

أما حلا فها هي قريبة تضغط على يده بتودد إذا رأت بعينيه نظرة حزن، ألقى برأسه على صدرها.. آه لتلك الرائحة. رائحة أمه، ضمته إلى صدرها بحنان أمهات العالم كلهن، انزلقت من عينيها دمعة اختلطت بدموعه، كانت لتلك اللحظات قدسيتها، لحظات أمان لم يشعر بها حتى وهو جنين في رحم أمه.

بدأت الشمس تشق حجب الغيم لترسل نورها، نهض يحث الخطى باتجاه عيادة الدكتور رشاد. وصل إلى هناك، كان بانتظاره، استقبله بابتسامته المألوفة:

– أرى أن هواء هذه المدينة أعاد لك حيويتك.

– تلك الحالة التي أدرسها الآن تثير لدي كثيراً من الأسئلة فمثلاً ذكرت في تقريرك أنها لم تتكلم أبداً، أهذه حالة دائمة؟ هل تكلمت من قبل؟ وكيف تتواصل مع من حولها؟

– تأكدت الآن من حدسي فأنت الوحيد من يستطيع أن يحقق نتائج إيجابية في علاج هذه الحالة وهذا واضح من حماسك، أما بالنسبة لسؤالك عن سبب امتناعها عن الكلام فأظنه حالة رفض للتواصل بمحيطها، أما عن سبب هذا الرفض فلم أستطع معرفته، تكلمت في مرحلة مبكرة لكن بعدها لم يسمعها أحد تنطق بأي كلمة، قاطعه سهيل: أرى من الأفضل أن أبدأ جلسات العلاج بأقرب فرصة لكي أفكر بطريقة مختلفة لتلك الجلسات. وخاصة أنها ترفض التواصل، فمن الأفضل إيجاد بيئة أو محيط تحبه وترتاح فيه يكون مكاناً للجلسات، أخبرني عن الأشياء التي تحبها تلك القديسة الصغيرة، ضحك رشاد، أهو الاسم الرمزي الذي اخترته لتلك الحالة، أظن من الصعب تحديد الأشياء التي تحبها، لكن في إحدى زياراتها لعيادتي رأيتها تجلس على الأرض في

صالة الانتظار تلاعب قطة صغيرة كانت مع أحد الزائرين لم أرى ذلك الفرح الذي يقفز في عينيها وتلك الابتسامة على شفتيها من قبل.

خرج من عيادة الدكتور رشاد وهو يفكر بخطة لعلاج تلك الطفلة بعد أن اتفق مع رشاد على موعد للجلسة الأولى.

بمساعدة فهمي وآخرين من مساعدي الدكتور رشاد أجرى سهيل عدة تعديلات على الغرفة التي كانت معدة له كعيادة، أزال جميع الأثاث وطاولة المكتب وجميع ما يدل على أنها عيادة طبيب، جعل منها كصالون لاستقبال الزائرين في سكن عائلي لم ينسَ وضع بعض اللوحات المخصصة بتداخل ألوانها وخطوطها عن أكثر من رؤية لتلك الأشياء المرسومة فيها، يستشف فيها المحللون النفسيون عن رؤية مرضاهم لتلك الأشياء رغم أنه يعلم أنها لا تتكلم، أعد كل شيء بانتظار يوم الأحد موعد جلستها الأولى، كم به شوق وفضول لرؤية تلك القديسة الصغيرة، اتفق مع الدكتور رشاد ألا يخبرها أنها ذاهبة للعلاج، اتفقا مع والدها أن تأتي برفقته لزيارة سهيل على أن هذه الزيارة بمحض الصدفة وأن يعرفها والدها على سهيل بأنه أحد أصدقائه القدماء وقد عاد إلى المدينة بعد غياب طويل.

منذ عشرة أعوام وفي هذه المدينة كانت حلا تلازم سهيل كظله، لم يكن لديه أي تفسير لإصرارها على ملازمته تلك الأيام التي كان في أسوأ حالاته فهو مهدد بالسجن بعد أن فقد كل شيء، فقد كل ما جناه خلال سنين، فقده في صفقة تجارية خسرها وأعلن إفلاسه، كانت تجربته الأولى بالتجارة، أقنعه أحد أصدقائه أن يستثمر ما جناه طوال فترة عمله في الطب، زوجته تخلت عنه، تخلى عنه جميع أهله وأصدقائه، لم يقف معه في محنته سوى حلا، كانت كأم حنون، تمسح الدموع عن عينيه ترعاه في مرضه، سألها مرة لماذا تصرين على البقاء معي وقد غادرني الجميع؟ لم أعد أملك شيئاً فماذا تنتظرين مني؟ لم تجبه، انزلقت من عينيها دمعتان، رمقته بنظرة عتاب وغضب، انسحبت إلى غرفتها المجاورة لغرفته في ذلك الفندق الذي كانا يقيمان به دون أن تقول أي شيء.

كان سهيل في الأربعين من عمره وهي في أواخر العشرين، حلا طفلة تملك حكمة الشيوخ، مراوغة بعواطفها، هي الوحيدة التي عجز عن تحليل شخصيتها تبعها إلى غرفتها، رآها تبكي، جلس قبالتها صامتاً، أدرك تماماً أنه جرحها بسؤاله، فهو يعرفها ذات كبرياء وأنفة، حاول أن يضفي قليلاً من المرح كي يخرجها من حزنها، قال لها:

– قطتي الشامية لم تأتِ هذا اليوم كي تموء على بابي جائعة تطلب الطعام.

كان يناديها " قطتي الشامية " إذ طالما رآها وديعة أليفة كالقطة. أخفت ابتسامتها قائلة:

– قطتك الشامية تود العودة إلى ديارها، إذ طالما لم تعِ حتى الآن سر بقائها معك.

أمسك يدها:

– حلا هل تذكرين ذلك اليوم؟ عندما اتصلت بك أعلمك أني لم أتِ إلى العيادة بسبب وعكة صحية أحسست بها كنت في منزلي وحيداً حينها فلا تظني أن زوجتي لم تغادرني من قبل، كنت على خلاف معها، أذكر تماماً كم تفاجأت بك عدنما فتحت لك باب بيتي، لا أستطيع أن أنسى تلك النظرة في عينيك، نظرة جزعة دامعة لم أرها في عيون أمي، قلت لي حينها بصوتك الملائكي دكتور منصور جئت لأطمئن عليك، أخبرني كيف تشعر الآن وماذا أستطيع أن أفعله من أجلك ومِمَ تشكو، كان صوتك حينها يرتجف ذلك اليوم لا يمكن أن أنساه أبداً، أذكر يومها كيف غفوت على صدرك وأنا أحدثك عن بعض همومي، حدثتك عن تلك المشاعر التي فاضت بها روحي عندما رأيتك أول مرة بمكتبي، وحين استيقظت لم تستطيعي النهوض لخدر في ساقيك فلم تحركيهما كي لا أستيقظ، أتعلمين منذ كنت وليداً في حضن أمي لم أشعر بذلك الأمان الذي شعرت به وأنا أغفو بحضنك، كنت أغرق برائحة الياسمين منك والتي تذكرني برائحة أمي، من يومها تأكدت أنك تلك الأم التي أبحث عنها منذ ولادتي.

– لا تسألني إذن عن سبب بقائي معك واهتمامي بك رغم كل ما سمعته ممن حولي من تهم باطلة، يقولون أنني تزوجتك سراً، وآخرون يتهمونني أنني عشيقتك، لم أصغِ لهم جميعاً فهم لا يعرفوني أنني ...

نظر إليها التقت نظراتهما، أحس بخشوع غريب، كانت عيناها تفيضان بالدموع لتشعان ببريق لم يره من قبل، سأله:

– أنك ماذا؟

أطرقت برأسها خجلاً وقالت:

– أنني أحبك.

آه لتلك المدينة... كان يعرف أنها ستثير لديه كثيراً من الذكريات، كثيراً من المشاعر كفيلة بأن تصيبه بحالة من الاختلال تلزمه بالبحث عن طبيب لعلاجه وهو من أتى لعلاج الآخرين.

في صباح يوم الأحد موعد جلسة (القديسة الصغيرة) استيقظ باكراً، كان يشعر بالرهبة من لقائها إذ طالما راوده هذا الشعور أمام آلام مرضاه من الأطفال كان يتعاطف معهم وكأنه يحس بآلامهم ويشعر بها وهذا كان سر نجاحه، مخالفاً بذلك أهم قاعدة في التحليل النفسي أن لا يتعاطف مع مرضاه.

دخلت شقته برفقة والدها تنظر حولها كقطة جزعة بعيون تشع ببريق أربكه، شعرها شديد السواد يسترسل على كتفيها ليضفي على بشرتها بياضاً ناصعاً كالثلج، حركاتها رشيقة، وبكل حركة منها توحي إليك أنها تطرح سؤالاً ما. استقبلهم سهيل ببشاشة وترحاب وكأنه يعرف والدها منذ سنوات، عاتبه والدها على غيابه كل تلك الفترة وقدمها قائلاً:

– حدثتك عنها ابنتي رغد.

مد يده يصافحها لكنها رجعت إلى الوراء تلتصق بوالدها، ابتسم سهيل مخاطباً والدها:

– لكنك لم تقل لي إنها بهذا الجمال.

دخل سهيل المطبخ وعاد ليضع على الطاولة صحناً من الحلوى المحببة إلى الأطفال بألوانها الزاهية، دون أن يقدمه لها بشكل مباشر، وبدأ بالحديث مع والدها بأمور عامة متجاهلاً وجودها لكنه كان يراقبها دون أن يلفت انتباهها، في بادئ الأمر لم تهتم بصحن الحلوى، كانت تجول بناظريها في أركان الغرفة تتفحص كل ركن فيها وكل ما تحتويه من أشياء، وبعد أن تفحصت هذا المكان الجديد الذي تدخله أول مرة وكأنها تبحث عن شيء تخشاه تخشى وجوده أو

شيء ما يشعرها بالأمان، أحس بشيء من الخوف داخلها وكأنما هناك ثمة رابط بينهما، بعد قليل انتبهت إلى صحن الحلوى، وكأنها لم تره من قبل، بدأت تنظر إلى سهيل وإلى أبيها، كان لها قدرة عجيبة في التحدث بعيونها دون أي كلام، أنهى سهيل ترددها عندما خاطب والدها قائلاً:

– تفضل تذوق هذه الحلوى أنت وأميرتنا الصغيرة فقد جلبتها خصيصاً لكما.

مد والدها يده يتناول بضعاً منها طالباً منها أن تتذوقها، اقتربت مدت يدها، لكنها تراجعت عندما سمعت مواء قطة يصدر من خلف أحد الأبواب المغلقة، بدأت تدور بناظريها تبحث عن مصدر الصوت وعندما عجزت عن تحديده نظرت إلى سهيل وكأنها تسأله من أين هذا الصوت؟ أمن المعقول أن هذه الطفلة تملك قدرة ما على التواصل الذهني، كيف لها أن تتحدث بعيونها دونما أن تنطق. ابتسم سهيل:

– أتريدن أن تتعرفي على قطتي (لولو)؟

ومد يده لها قائلاً :

– تعالي.

لم يكن يتوقع أن تنصاع له وتعطيه يدها لكنها فعلت وأمسكت بيده طائعة قال لها: وأنا أيضاً مثلك أحب القطط كثيراً، وفتح لها باب غرفة الغسيل التي وضع فيها قطة جلبها خصيصاً لها.

استمرت باللعب معها طوال فترة وجودها عنده، اعتبر سهيل هذه الزيارة خطوة كي تألف هذا المكان وتعتاد عليه.

جلس بعد مغادرة رغد مع والدها يدون ملاحظاته، يفكر بطريقة يستطيع أن يتواصل معها، كيف لـه أن يحدثها وهـي ترفض الاستماع لأي كـان، وكيف يستطيع أن يجعلها تتكلم وهـي الخرساء، كيف له أن يدخل عالمها الغامض ليعرف ماذا يدور في هذا الرأس الصغير؟

للنفس البشرية أسرار عجزت كل العلوم عن إدراكها، الخطوة الأولى في علاجه إقناع والديها بأن مثل تلك الحالة يمكن علاجها وليس هناك داع للجوء إلى الشيوخ والدجالين فليس هناك أروح شريرة تسكن الأجساد، احتد سهيل عند سماعه ذلك من والدها وحذره من ذلك، وطلب منه أن يتفهم حالتها ويحسنوا التعامل معها، إذ لاحظ أنه يعاملها بقسوة وأنها تعاني بعض العنف من والديها، من المؤكد أن سهيل وضع الوالد تحت المراقبة، وهذا ضروري جداً لفهم تلك الحالة، اكتشف سهيل أن والد تلك الطفلة ومن خلال أسئلة طرحها عليه بشكل غير مباشر، أنه إنسان جاهل ذو ذكاء محدود يصل أحياناً لدرجة الغباء، يعاني نقصاً في شخصيته يحاول تعويضه بثروة يتفاخر بها، ليس لديه ثقة بنفسه، يشك بكل شيء، ليس لديه ثقة بأحد، وهذا يدل على أنه شخص غير سوي تثقله آثامه وأخطاؤه، هذا ما جعل سهيل يستبعده كوسيط للتواصل معها.

هل هناك رعاية إلهية؟ هل هناك أقدار تتحكم في مسار حياتنا ؟ حدث نفسه.. بعد قدومه إلى هذه المدينة بأيام اتصلت به ابنته، أتى صوتها عبر الهاتف مليئاً بالفرح: بابا سهيل كيف حالك، وأين أنت الآن، اشتقت إليك كثيراً. اتفق معها أن تقضي إجازتها معه وخاصة عندما علمت أنه الآن في هذه المدينة التي تحبها إذ أنها تحمل ذكريات جميلة لأيام قضتها هنا أيام طفولتها، فرح كثيراً لأنه سيرى حفيدته الصغيرة (رئدة) ابنة الأربعة أعوام.

بعد أن أنهى اتصاله .. تذكر حلا، ترى أين هي الآن وكم من الأولاد أنجبت؟ ابتسم.. تذكّر ما قاله لها ذات يوم مازحاً، قال لها: إن أنجبت طفلة جميلة تشبهك سوف أخطفها منك، لو يعرف أين هي الآن لما تردد في زيارتها كم كانت تضحك عندما كان يقول لها سوف آتي لزيارتك

يوماً، أفاجئك بتلك الزيارة لتفتحي باب بيتك وأنت تحملين طفلك بإحدى يديك وطفلاً آخر يتعلق بذيل ثوبك باكياً وأنت تزجرينه، وعندما تشاهديني تخفين صدرك العاري خجلاً، أما وزنك فقد زاد كثيراً ليتجاوز المائة كيلو ورائحة البصل والثوم تفوح منك ، تقول له بلهجتها التي كان يطرب لسماعها: (فشرت بعينك أنا حلوة وبدي ضل هيك حلوة وأمورة)، حلا.. هي من أضاءت شمعة في ليل غرق بأحزانه أنسته كل آلامه، أحالت حزنه لفرح طفولي، كان لديها القدرة أن تعيده لأيام طفولته، كم مرة ركضت خلفه وهو يهرب منها حين يتحدث مع أحد من أهله عبر الهاتف كي لا تسمعه يتحدث بلهجته المحلية والتي كانت تضحك عند سماعها وتعلق على كثير من الكلمات فيها، كطفلين كانا يمرحان معاً، يركضان يقفزان، وكعاشقين يمشيان تحت المطر لساعات يداً بيد، وكجنديين في خندق واحد كانا يتقاسمان طعامهما وأحلامهما وأحزانهما، أحبت كل شيء يحبه، تعلمت منه أشياء كثيرة وتعلم منها أشياء أكثر، أعادت له إيمانه وثقته بكل البشر، رأى منها الخير رأى منها الوفاء والحنان، علمته كيف يحب، وعلمها كيف تحب، ماذا لو أن أمهات العالم كلهن مثلها يملكن هذا الحنان هذا الفيض من القدرة على العطاء، لما رأيت حالة مرضية كحالة تلك الطفلة، كانت تحب الأطفال كثيراً ولها القدرة على التفاهم معهم، تذكر مرة عندما كان معها في أحد الأسواق كيف أنها انقضت كنمرة فقدت أحد أولادها على إحدى النساء تؤنبها بقسوة لإهمالها طفلها الذي تعثر ولم تعره اهتمامها، أعطتها درساً في رعاية الأطفال رغم أنها لم تنجب بعد، ليتها هنا الآن فهو على يقين لو أنها هنا وضمت لصدرها هذه الطفلة الصغيرة المريضة للحظات لأعادت لها أمانها واستقرارها النفسي، لماذا يفتقدها هذه الأيام سؤال حيره !!

تذكر ذلك اليوم عندما تبعها إلى غرفتها ليعتذر منها، وحين أخبرته بحبها، ضمها إلى صدره بقوة طالباً منها أن تسامحه على كلامه وعلى ما سببه لها من متاعب في تلك اللحظات الحميمة أثارت لديه غرائز كانت كامنة لديه بحكم تلك الظروف التي كان يمر بها، التصاق

جسديهما وذلك الدفء أيقظ داخله غرائزه الذكورية لكنها ابتعدت عنه معتذرة بلطف عندما أحست بما يرمي إليه، لكنه في تلك الليلة نام بحضنها كطفل أعادوه لأمه بعد غياب طويل.

ترقب موعد جلسة مريضته التالية بعد أن طلب من ابنته أن تعطيه بعض الخصوصية أثناء الجلسة طالباً منها عدم مقاطعته أو السماح لابنتها رئدة بالدخول عليهم خلال فترة وجود مريضته..

رئدة طفلة تشبه الملائكة بجمالها، مرحة، شقية كأمها، متعلقة بجدها بشكل غريب رغم أنها لم تلتقه سوى فترات قصيرة خلال أعوامها الأربعة.

رغم توصيات أمها شارحة لها أن جدها مشغول بعلاج إحدى مريضاته، غافلتها، يدفعها فضولها الطفولي لرؤية تلك المريضة ، دخلت مكتب جدها، كان منهمكاً بالحديث مع مريضته حاملاً قصة مصورة للأطفال محاولاً لفت انتباهها لتصغي إليه، يريدها أن تجيب عن أسئلته أن تبدي أية ردود أفعال، لكنها كانت غير آبهة لوجوده كل اهتمامها كان اللعب مع قطتها، تدحرج لها كرة الصوف، تفرح لقفزاتها تلتقط الكرة من جديد من بين مخالب القطة لتلقيها بعيداً كي تجري خلفها تسابقها للوصول إليها، عندما دخلت رئدة لم تأبه لوجودها، تابعت اللعب، لكنها عندما اقتربت منها محاولة اللعب معها دفعتها بقوة لتبعدها، تدخل سهيل وحمل رئدة بين يديه يهدئ من روعها قائلاً لها: نسيت أن أدعوك للتعرف على رغد إنها فتاة لطيفة، أجلسها في حجره يشرح لها: رغد ابنة أحد أصدقائي تركها عندي بعض الوقت ليعود لاصطحابها بعد أن ينهي عملاً مهماً لديه بالقرب من بيتنا، لم تكن تعلم رغد أن تلك القطة تخصك أنت، قال ذلك كي تسمع رغد لتتقبل وجود رئدة إذا علمت أن هذه القطة تخصها، وفعلاً أثمرت محاولته بإقناع رغد تقبل حفيدته، في بادئ الأمر عاملتها بحذر شديد، لكن رئدة بروحها المرحة وأنسها استطاعت أن تجعل رغد تتقبلها ليلعبا معاً مع صديقتهما الثالثة (لولو).

الطفولة وبراءتها سحر يذهل الألباب، كم كان منظرهما معاً يسعد القلب ويثير البهجة في النفوس، كانت رئدة تحدثها تطرح عليها بعض الأسئلة لكنها لم تكن ترد عليها سوى بنظرات لم تفهمها، لكن ذلك لم يكن عائقاً للاستمرار باللعب معها وطرح مزيد من الأسئلة عليها دون أن تسمع منها أي رد.

عندما حضر والدها وشاهد ابنته تلعب بمرح مع طفل تراه أول مرة تعجب واعتبر ذلك تقدماً بعلاج ابنته لأنه اعتادها تنفر من أي طفل تراه وترفض حتى من الاقتراب منه.

بعد مغادرة رغد ووالدها عكف يدون ملاحظاته كعادته، اليوم هناك تقدم ملحوظ في حالة القديسة الصغيرة ، لقد بدأت تتقبل الآخرين والتفاعل معهم ، لكن السؤال الأهم هل تقبلت رئدة لأنها علمت أنها صاحبة القطة التي أحبتها وخشيت أن تمنعها من اللعب معها، أم أنها تقبلتها لأنها أحست بذلك الشعور الفطري بأن تكون اجتماعية وأنها تحتاج للآخرين؟ هذا سؤال يجب أن يجد إجابة عنه، لذلك طلب من ابنته أن تأخذ حفيدته إلى الحديقة القريبة خلال فترة وجود رغد عنده.

في اليوم التالي ما أن دخلت بصحبة والدها حتى توجهت مسرعة إلى غرفة المكتب دون أن تتعلق به كعادتها عندما أخبرها أنه سيدعها لوحدها بعض الوقت، خاطبه والدها هامساً وهو يبتسم فرحاً: هذه المرة الأولى التي تأتي معي بطلب منها وبحماس لم أعهده منها من قبل، ودعه سهيل، دخل مكتبه وجدها جالسة تداعب قطتها وعندما رأته نظرت إليه وأجالت بناظريها في أركان الغرفة، عرف أنها تسأل عن حفيدته قال لها: لقد خرجت رئدة مع والدتها وسيعودان بعد قليل تابعت لعبها غير آبهة، سأل نفسه هل غياب رئدة خبر أفرحها؟ لأنها ستلعب وحدها ولم يشاركها أحد بقطتها أم أنها تكابر في إظهار مشاعرها وهي تفتقد وجود رئدة، سألها إن كانت تريد مزيداً من الحلوى، نظرت إليه بابتسامة من عينيها تدل على موافقتها، دخل المطبخ اتصل

بابنته يطلب منها العودة، حدثها هامساً كي لا تسمعه رغد، عاد ليضع طبق الحلوى أمامها.

– رغد هل تودين أن أقرأ لك قصة الأميرة النائمة؟

كعادتها لم تلتفت إليه عرف أنها لا ترغب بذلك، بعد عدة دقائق سمعت جرس الباب، نهضت مسرعة باتجاه الباب لتفتحه، كانت تنتظر عودة رئدة، عندما رأتها أمسكت بيدها والفرح يتقافز من عينيها قادتها باتجاه المكتب وهي تشير باتجاه قطتها، تحرك يديها بحركة لم يفهمها، لكن رئدة فهمت عليها:

– آه تريدين كرة الصوف التي تلعب بها لولو.

يا لعالم الأطفال كم هو رائع وجميل، لهم القدرة على التفاهم مع بعضهم بلغات يجهلها الكبار، لم ينتظر رحيلها، جلس يدون ملاحظاته، فتح ملفها ودوّن.. اليوم استطاعت القديسة الصغيرة أن تهزم شعورها بالخوف من حولها. توقف عن الكتابة، سأل نفسه ما هو الشيء الذي حررها من عقدة الخوف .. ابتسم إنه الحب، فبالحب يمكننا أن نعالج كل الأمراض.

تذكر حلا ثانية، كانت عندما تشكو من أي ألم يضمها إلى صدره :

– تعالي أعالجك بطريقتي الخاصة، تعالي أعالجك بالحب.

كانت تسخر منه، هي أيضاً لها نظرياتها، لم تكن تؤمن بأن العواطف مشاعر روحية، كانت تقول له ليست المشاعر سوى تأثير عضوي لمادة تفرزها أجسامنا ندعوها (الفرمونات) كم كان يغضب عندما تقول له ذلك، يوبخها لأنها تحط من مشاعر جميلة تنزلها إلى حضيض المادة، ناقشها كثيراً لكنها كانت تصر على قناعتها فقط كي تغيظه إذ طالما انتقدته لأنه عاطفي لدرجة مبالغ بها، أين هي الآن لترى بعينها ماذا يفعل الحب، فتلك الطفلة عندما أحست بذلك المحيط المليء بالحب والحنان استطاعت أن تتجاوز مخاوف لم يستطع أهلها تحقيقها رغم كل ما يبدونه من عناية بها.

لم يكن يعرف أن حلا تعاني من عقدة نفسية رغم أنه يهتم بكل حركة أو سلوك من جميع المحيطين به، لم يستطع تلك الفترة معرفة سبب رفضها لأي اتصال جسدي بينهما مع أنها كانت فائضة الأنوثة مرهفة المشاعر، ليال كثيرة اعتاد أن ينام متوسداً صدرها، تثيره لكنه يكبح جماح رغبته عندما يتذكر تلك اللحظة التي صدته عنها بلطف، يغيظها أحياناً بسؤاله إلى متى سيبقى حبنا عذرياً، إلى متى سأبقى أنام قربك وكأني أنام في حضن أمي، إلى متى أبقى ظمئاً وبين يدي ماء زلال، يقول لها:

– أتعرفين أصبحت أمنية بحياتي أن تنامي بقربي عارية كما ولدتك أمك لأروي كل ذلك العطش الأزلي الذي أعاني منه.

تقول له بضحكتها الساخرة وبلهجتها التي كم أحبها :

– هاد شي لا تحلم فيه لأنه ما صح لملوك.

في أحد الأيام طلب منها مرافقته للقاء إحدى صديقاته في مدينة أخرى، جاملته وذهبت معه، لكنه لاحظ حركاتها العصبية وردودها الغاضبة عندما يحدثها أثناء وجود صديقته، عرف أنها تغار عليه ولا تقبل وجود امرأة أخرى بحياته، سعد بهذا كثيراً.

كانت تحبه، وهذا يبدو بسلوكها ومن خلال كل حركة أو فعل تقوم به، فكم من الأشياء أصبحت تحبها فقط لأنه يحبها أصبحت تشاركه في سماع الموسيقى التي يحبها، حتى طريقة إعداده للقهوة أصبحت المفضلة لديها، تحب من يأنس له وتنفر ممن تراه يبتعد عنهم، وويل لمن ينتقده بغيابه، كانت تحميه وتذود عنه كقطة شرسة تحمي صغارها.

في إحدى الليالي كانت تواسيه وتخفف عنه عندما رأته بتلك الحالة، كانت هموم الدنيا كلها وأحزانها تملأ قلبه، كان تائهاً ما بين زوجته التي تخلت عنه وتلك المخاطر المحيطة به كانت قربه تمده بالقوة والعزيمة، تحثه على البقاء واقفاً ليتجاوز تلك المحنة التي يمر بها أمسكت بيده وبصوت ملؤه الحنان: دكتور منصور قم نمشي قليلاً، أتسمع إنها تمطر بالخارج كم بي شوق للسير معك تحت المطر، صدقني إنه سينعشك، هيا بنا فأنا أعددت لك هذه الليلة مفاجأة ستسرك كثيراً.

خرجا معاً مشيا لساعات تحت المطر يده بيدها صامتين يتحدثان دون كلام تلتقي نظراتهما وكأنها تجيب على ما عصي على فهمه، يرى هذا البريق الرائع في عينيها، وكأنها تقرأ ما يدور في ذهنه.

تلك الليلة محفورة بذاكرته، لم يعش تلك السعادة من قبل، بعد أن أعدت له فنجان قهوته وجلست قربه ، كانت قطرات المطر ما زالت تزين شعرها الأسود الداكن كحبات اللؤلؤ، أما عيناها.. آه من عيناها كانتا تشعان بسحر يسكره ، ثيابها المبتلة تلتصق بجسدها لتبرز مفاتن جسد خرافي المعالم، بدت وكأنها الآلهة فينوس، نظر بعينها خاطبها بصوت ملؤه الرغبة:

– ماذا أعدت لي قطتي الشامية من مفاجأة.

نظرت بعيونه بتحد صارخ:

– سأحقق لك أمنيتك، سأنام معك هذه الليلة عارية كما اشتهيت.

صوت المطر يقرع زجاج النافذة، وصوت لهب المدفأة توحد مع وقع حركات جسديهما العاريين ليتوحدا بجسد واحد بلحظات قدسية وكأنها طقس ملائكي آت من عوالم سماوية أخرى، لم يشعر بحياته بمثل تلك المتعة وتلك السعادة التي غمرته بها وحين نظر إلى عينيها رآها دامعتين وهي تنام قربه متجهمة الوجه وكأنها تشعر بالندم على ما فعلته، سألها: حلا حبيبتي ما

بك؟ ما هذه الدموع في عينيك؟ انتفضت وكأنها الآن فقط علمت بوجوده قربها، لفت جسدها العاري وجرت مسرعة إلى الغرفة الأخرى، لحظات فتح باب غرفته لتغادر إلى غرفتها المجاورة.

بعد عدة أيام عادت ابنته وحفيدته إلى بلدهما بعد أن انتهت إجازتهما، لم يكن يعلم أن رغد تعلقت بحفيدته إلى تلك الدرجة، فحين أتت ولم ترها سألت عنها بإشارات من يدها، أخبرها سهيل بأنها عادت مع أمها حيث تقيم، لم يتوقع ردة فعلها، جلست متربعة على الأرض وهي تحرك جذعها إلى الأمام وإلى الخلف بحركة رتيبة تلك حالة تصيب الأطفال المتوحدين، يعبرون فيها عن غضبهم ورفضهم لكل شيء ، يكونون فيها بقمة انفعالهم ، يزداد إفراز الأدرنالين عندهم وهذا يشكل خطراً على جهازهم العصبي، لم يشعر سهيل بنفسه إلا وهو يجلس قربها يقلدها تماماً بحركتها وهو يقول لها: وأنا أيضاً مثلك أفتقد رئدة وغاضب لسفرها، أتظنين أن حركاتنا هذه ستعيدها أو على الأقل تسمعنا صوتها، ألا تظنين أنه من الأجدر أن نكف عن حركاتنا هذه التي لن تجدي نفعاً ونقوم لنتصل بها نسمع صوتها ونسألها متى ستعود، نظرت إليه بطرف عينها رأته يقلد حركتها بصورة مضحكة ، توقفت عن حركتها وهي تبتسم :

– لماذا توقفت استمري معي ربما هذه الحركة تحقق لنا ما نريد.

أمسكت به لتوقفه لكنه استمر :

– دعيني ربما تكوني محقة بما تقومين به.

نهضت وقفت خلفه تطوق رقبته بذراعيها الصغيرتين لتمنعه عن هذه الحركة، استمر، ارتقت ظهره وبدأت تميل معه إلى الأمام وإلى الخلف، توقف عن الحركة عندما سمع أجمل

ضحكة بحياته سمعها تضحك لأول مرة بصوت كتغريد البلابل، نهض ليحملها بين يديه يقبلها يضمها إلى صدره وهي ما تزال تضحك:

- أيتها الشقية الصغيرة تعالي نتصل برئدة لنوبخها على تركنا وحيدين ونسألها متى ستعود؟

فتح السماعة الخارجية لهاتفه عندما سمع صوت رئدة :

- ألو رئدة كيف حالك صغيرتي.
- آلو جدي.. أنا بخير هل رغد عندك؟؟

عندما سمعت رغد صوتها شعت عيناها ببريق الفرح، وأشارت بيدها تطلب منه أن يسألها متى ستعود؟

- ألو رئدة إنها قربي وتسمعك، تسألك متى ستعودين لزيارتنا.
- كيف حالك رغد وكيف هي قطتنا لولو، لقد وضعت لك ألعابها تحت سرير جدي، اعتني بها جيداً، قالت لي أمي إننا سنأتي في عطلة الربيع، وسنقضي عدة أيام عندكم... باي.

قفزت رغد من حضن سهيل، وعادت للعب مع قطتها، لم يستطع منع دموعه عندما رأى قديسته الصغيرة وهي تتجاوز أصعب مرحلة بعلاجها، فالخروج من حالة التوتر تلك التي أصابتها تحتاج لأيام كي يخرج منها أي طفل مصاب بالتوحد، اتصل بوالدها يسأله هل سمعها تضحك من قبل، سأله والدها مستغرباً وهل سمعتها أنت تضحك فمنذ ولادتها لم أسمع سوى صوت بكائها، لم أسمعها تضحك قط، لم يصدق والدها ما سمعه، وعندما أتى لاصطحابها طلب من سهيل أن يحدثه بتفاصيل أكثر عما حدث اليوم ، نصحه سهيل أن يجعلها تختلط بأطفال من سنها وأن يشعرها بمزيد من الحب.

ما الشيء الذي جعل تلك الصغيرة تصل إلى هذه الدرجة من الحزن والخوف لتغلق أبواب عقلها أمام جميع ما تراه أو تسمعه، لماذا ترفض من حولها، ما الشيء الذي جعلها تمتنع عن استخدام حواسها، لتعيش داخل نفسها وحيدة متوحدة، وما الشيء الذي أثار حزن حلا وغضبها تلك الليلة، ولماذا خرجت من عنده بتلك الطريقة، لقد تأكد من أنها تبادله نفس المشاعر نفس الرغبة، بادلته حباً بحب ومتعة بمتعة، كان هذا واضحاً بكل حركة من حركاتها وكل سكنة من سكناتها، تجاوبت معه بكل أحاسيسها فما الذي أصابها بعد ذلك.

أيام مرت ولم يستطع سؤالها فقد كانت تتحاشى لقاءه وتتجنب أسألته، إلى أن طلب منها الحضور إلى غرفته لأمر هام ، خاطبها بكل جدية:

- حلا اسمعيني جيداً لا أريدك أن تشعري بالذنب لما قمنا به فنحن راشدان نعي ما نفعله ولم نقم به إلا بمنتهى الحب، وإن كنت قد شعرت بالنفور مني وهذا أمر يحدث ألست صاحبة نظرية (الفرمونات) ربما لم تتوافق فرموناتنا اللعينة هذه إن كان هذا ما حدث فأنا أعتذر منك ولن أطلب منك هذا مرة أخرى.

ابتسمت قائلة:

- أرى أنك قليل الإحساس ألم تشعر بي كيف كنت معك، كانت هذه تجربتي الأولى، لم أشعر بمتعة مثل هذه من قبل.

- إذن ما الذي جرى لك لماذا هربت تلك الليلة غاضبة دون أن تقولي أي شئ؟

- دكترر منصور، أرجوك لا أحب الحديث بهذا الموضوع .

- حلا اسمعيني جيداً، إنسي أنني من أحببتِ، ها أنت تقولينها دكتور زفت دكتور منصور، اعتبري أنك إحدى مريضاتي، حدثيني عما يدور في رأسك.
- أتظنني مجنونة؟
- ليس كل حالات الاضطراب النفسي جنوناً، حسناً لا تخجلي مني اعتبريني إحدى صديقاتك، أخبريني بمكنونات صدرك.

صمتت للحظات أطرقت برأسها والدموع تفر من عينيها، كاد أن يجري ليضمها إلى صدره ليمسح دموعها تلك أحرقت فؤاده، لكنه تراجع وعاد يلعب دور الطبيب.

- حلا أرجوك اسمعيني، أي واحد منا يحمل بداخله شيئاً آلمه ... صدمه ... ربما هذا الشيء يؤثر على سلوكنا أو على طريقة تفكيرنا، سأبوح لك بسر كتمته عن أقرب الناس لي، لم أحدث به أحداً من قبل، أسألتِ نفسكِ عن سبب تعلقي بك إلى هذه الدرجة.

ضحكت عندما أحست بصوته شيئاً من الألم قالت تمازحه رداً على سؤاله بلهجتها الجميلة:

- هاد شي معروف لأني حلوة ومقطقطة.

ضحك واستمر بحديثه:

- حلا أكلمك جاداً، منذ طفولتي حرمت من حنان الأم، توفيت شقيقتي الكبرى قبل ولادتي بأيام، وعندما أتيت إلى هذه الدنيا، أصبحت رمزاً للشؤم عند والدتي رفضت إرضاعي، عهدت بي لإحدى شقيقاتها، حرمت دفء حضنها حرمت من حنانها طوال فترة طفولتي، عندما كبرت أصبح الشيء الذي يحدد مدى تعلقي بأي أنثى هو ما أراه منها من حنان وعطف حرمت منه، أنت تعرفين كم من النساء أحببت كم منهن عاشرت، جميع علاقاتي كانت عابرة حتى علاقتي بزوجتي، أنت الوحيدة من لا أستطيع تخيل حياتي دونكِ، لم أجد

حناناً من إحداهن مثلما وجدته منكِ، كم من الأيام نمت بحضنك متكوراً كجنين، لم أحس بأمان مثلما أحسه قربك، لم أعِ ذلك وأدركه سوى عندما عرفتك أنتِ، أتسمين حالتي تلك جنوناً إن كان ذلك فقد شفيت على يديك، لماذا لا تعطيني فرصة لأساعدك فض أختام قلبك وحدثيني.

بعد دقائق من الصمت بدأت تسرّ له :

- كنت في الثالثة عشرة من عمري، لم أبلغ بعد، في إحدى ليالي الصيف الحارة كنت أنام في غرفتي شبه عارية، تسلل إلى غرفتي وبدأ يداعب جسدي، ذاك الرعب الذي أصابني شل حركتي، لم أستطع الصراخ، لم أستطع المقاومة، لم أستطع القيام بأية حركة، أصبحت كجثة هامدة لا أذكر الآن سوى عينيه، كانتا تلمعان في الليل كعيني حيوان مفترس، صحيح أني شعرت بمتعة لم أعرف يومها سببها! لم أدرك لماذا أتى ولماذا فعل معي ما فعل؟ تركني ملطخة بسائل لزج ورحل، من يومها أصبحت أخاف من العيون في الظلام أصبحت أشعر بالرعب عندما أحس بأية متعة جسدية.

لم يستطع سهيل أن يمنع دموعه، أمسك بيدها:

- حلا إن الله خلق لنا غرائز أوجدها فينا بفطرتنا، جعلنا بحاجة للماء والطعام والجنس، جعلنا نعطش ونجوع ونحتاج لإشباع غريزتنا الجنسية، ولكن هذا لا يجعلنا نتحول إلى مجتمع حيواني نفتقد لعقولنا، فليس حاجتنا للطعام تدفعنا لأكل المخلفات كالخنازير أو شعورنا بالعطش يجعلنا نشرب مياهاً آسنة، غريزتنا الجنسية مطلب جسدي يجب إشباعها ولكن يجب أن يتم هذا بالحب والانسجام العاطفي والرضا، فليس التحرش والاغتصاب حلاً لإشباع تلك الغريزة، وأيضاً ليس إشباعها ضرورة ملحة تحولنا إلى حيوانات نتبادلها لمجرد الرغبة فكم من الفرق عندما تشبعين هذه الرغبة مع من تحبين أو أن تشبعيها مع أي عابر سبيل

لمجرد المتعة فقط، هناك فرق كبير، لم أقل لك تلك اللحظات التي قضيتها معك لم أحس بمتعة مثلها من قبل ولا حتى مع زوجتي، أتعرفين لماذا لأني أحبك فتلك العلاقة تلبس ثوب قدسيتها وسموها حينما تكون بين محبين يجب عليك أن تدركي هذا، أصدقيني القول هل كان شعورك بالمتعة معي كتلك المتعة التي شعرت بها تلك الليلة مع ذلك الذئب البشري.

ضغطت على يده معاتبة إياه لتلك المقارنة :

- دكتور منصور أتعلم أني طوال عمري لم أجرؤ على الحديث عن تلك الليلة مع أحد سواك، كنت أصاب بالرعب لمجرد أن أذكرها، لا تعلم كم أشعر الآن بالراحة بعد أن حدثتك عنها وكأنني أزحت عن كاهلي عبئاً ثقيلاً.

رأى سهيل أنه من الضروري أن يعرض على الدكتور رشاد النتائج التي توصل إليها، وأن يطرح عليه بعض الأسئلة فهي مريضته وقد تابع حالتها لفترة ليست بقصيرة قبل أن يبدأ هو بعلاجها.

لم يصدق رشاد النتائج التي توصل إليها سهيل خلال هذه الفترة القصيرة، فقد كان يعتبر حالة رغد عصية على الفهم وعلى التحليل، أخبره عن محاولاته وعن الطرق التي اتبعها والتي لم تثمر عن شيء، حدثه عن عدم تفهم والديها لحالتها وعن سوء معاملتهما لها، أخبره سهيل كيف أنها تجاوبت معه عندما أتتها حالة التوتر، ضحك وسأله من أين جاءتك هذه الفكرة فلقد احتجت لأيام كي أستطيع أن أخرجها من تلك الحالة وقد أعطيتها أنواعاً كثيرة من العقاقير المهدئة فلقد استمرت معها هذه الحالة إحدى المرات عدة أيام، قال سهيل أتعرف أني عندما جلست قربها لأقلدها بحركتها لم أكن أتوقع ردة فعلها، قمت بهذا دون تفكير، أحسست بحزن وتعاطف شديدين معها، لقد أحببتها بالفعل لدرجة أني أصبحت أحس بما تشعر به أصبحت أتألم لألمها وكأنما رابط خفي يصلني بها، أتعرف بت أتوق لرؤيتها أنتظر موعد قدومها وكم أتمنى لو أن والدها يدعها عندي طوال الوقت، وهي أيضا أصبحت تتذمر من والدها حين يأتي لاصطحابها وتطلب منه أن تبقى لفترة أطول، سأله رشاد مستغرباً: ألا ترى أن هذا يخالف ما تعلمناه بأن لا نتعاطف مع الحالات التي نعالجها، ها أنت تعاطفت معها، تعلقت بها وتعلقت بك أتظن أنه سبب لاستطاعتك أن تعيد لها فرحها الطفولي وتجعلها تضحك إني لا أصدق هذا.

سأله سهيل عن علاقتها بأمها أوضح له رشاد أنها ليست أفضل من علاقتها بوالدها فهي ترفض الانصياع لهما لكنها تأنس لأمها وتحس بالأمان معها أكثر، لكني لاحظت في إحدى زياراتهم ردة فعل لها استغربت منها ولم أجد تفسيراً لها حينها أتت أمها برفقة والدها لسوء حالتها تلك الأيام، وعندما بدأت الأم تشرح لي تصرفاتها وسلوكها غلبها البكاء وعندما اقترب

زوجها محاولاً التخفيف عنها، انتفضت رغد وأبعدت يده عن أمها وكأنها تخاف عليها رافضة أن يلمسها، قاطعه سهيل ألم تسألهما عن السبب حينها قال له رشاد لم أجد لديهما أية إجابة فهما لا يفهما معظم تصرفاتها أو ردود أفعالها.

دونّ سهيل عدة ملاحظات وغادر رشاد وقد ازداد حيرة في حالة قديسته الصغيرة.

عاد مسرعاً فقد قرب موعد قدومها.

كعادتها أسرعت بالدخول تبحث عن قطتها، وكعادته ينتقل معها في أرجاء البيت وهي تجري خلف قطتها يحاول أن يلفت انتباهها بكتاب لقصص مصورة يحاول جاهداً أن يلهيها بأي شيء آخر كي تصغي إليه، جميع محاولاته فشلت، دخل المطبخ يعد فنجاناً من القهوة بعد دقائق دخلت إليه وهي تبكي تشير إلى يدها المجروحة بمخالب القطة، أجلسها بحضنه يعقم جرحها وبدأ يشرح لها :

- حبيبتي رغد إن لولو هذه الفترة حامل، ببطنها أولاد صغار ، فقد تزوجت هذا القط اللعين الذي لا أعرف كيف يدخل إلى هنا عبر تلك النافذة التي تفصل بيننا وبين منزل جيراننا أحبته وتزوجته وستنجب عن قريب أولاداً صغاراً ستحبينهم . والقطط يا صغيرتي لا تحب أن يلعب أحد معها بفترة حملها لذا أنصحك بعدم الاقتراب منها هذه الفترة، تعالي أقرأ لك إحدى هذه القصص الجميلة، هدأت وأومأت برأسها موافقة.

طوقت رقبته بذراعها الصغيرة وهي جالسة بحضنه تصغي إليه تتابع الصور التي كان يشير إليها، تتسع عيناها أحياناً فرحاً لصورة مضحكة وتعبس أحياناً لحدث حزين، إلى أن غلبها النعاس ونامت، طلب سهيل من والدها ألا يوقظها وخاصة عندما أخبره أنها لم تنم منذ أيام، استغرب والدها كثيراً عندما رآها نائمة سأل سهيل إن كان قد أعطاها أي عقار مهدئ، أخبره سهيل أنه لم يعطها أية عقاقير منذ بدء معالجته لها وأنه لا يؤمن بطريقة العلاج بالعقاقير

وخاصة مثل حالة رغد، فرح والدها كثيراً وغادر على أن يتصل به سهيل لاصطحابها عندما تستيقظ. بقي سهيل مستيقظاً حتى الساعات الأولى من الصباح يطالع بعض الكتب، وبين الحين والآخر يدخل كي يتفقدها ليراها نائمة كالملائكة، لم يعرف كيف غلبه النعاس ونام على الأريكة بمكتبه، في صباح اليوم التالي استيقظ، فتح عينيه ليرى أجمل عينين رآهما في حياته، إنها عيون حلا لا بل وجهها أيضاً، كانت رغد تجلس قربه تحدق به وهو نائم ، كم كانت تشبه حلا بعيونها ووجهها الأبيض المستدير وابتسامتها الرائعة وشعرها الأسود الداكن، ابتسم حين رآها:

قديستي الصغيرة متى استيقظتِ أيتها الشقية، نهض أمسك بيدها تعالي نعد طعام الإفطار.

لأيام وأيام اعتاد سهيل ألاّ ينام إلا وأنفاس حلا تختلط بأنفاسه، اعتاد ألاّ يقع ناظراه عندما يستيقظ إلا على رؤية وجهها الملائكي، اعتاد على رائحة الياسمين التي تغمره بها وهي نائمة قربه، اعتاد على زهورها التي تضعها فوق رأسه وهو نائم اعتاد على كل شيء فيها، تركت غرفتها لتشاركه غرفته في ذلك الفندق، تلك الأيام كانت أسعد أيام حياته، تراهما أحياناً كباحثين عندما تستمع لنقاشهما في موضوع ما وتراهما أحياناً كطفلين يركضان يقفزان يلهوان معاً، كم من المرات اختلفا لأمر تافه حينها تبدأ بجمع ملابسها وأغراضها لتخبره أنها ستعود لغرفتها، كانت تعرف مدى تعلقه بها كانت تفتعل تلك المواقف ليأتي إليها يصالحها ليؤكد لها أنه لا يستطيع العيش دونها، وحينما يصاب بوعكة صحية تسهر الليل بطوله ترعاه كأم حنون.

****

أصبحت رغد مطيعة تنصاع لكل أوامره بل بدأت تطلب منه أن يحكي لها قصصه المضحكة تفرح عندما يحبو على الأرض وهي تعتلي ظهره مقلداً الحصان، كانت ضحكتها تملأ المكان بهجة ومرحاً، لم يعد يطيق فراقها، وهي أيضا بدأت ترجو والدها بنظرات حانية تطلب منه البقاء لفترة أطول، لاحظ أهلها تحسناً كبيراً بحالتها، أصبحت مطيعة، لم تعد تؤرقهم بسهرها وامتناعها عن النوم باتت تبدي نوعاً من المرونة في تقبل أوامرهم.

في إحدى المرات كان واقفاً أمام مكتبه يبحث لها عن قصة يرويها لها، أحس بدوار سقط إثره على أحد المقاعد، هرعت إليه أمسكت يده وبعينها نظرة جزعة تسأله عما أصابه، طلب منها أن تحضر له علبة السكر من المطبخ فذلك الدوار الذي يأتيه سببه مرض السكري الذي يعاني منه، أحياناً يدخل في غيبوبة إن نسي تناول دوائه عادت إليه مسرعة بعلبة السكر تناول منها ملعقة وهي تنظر إليه باستغراب ونظرة خوف في عينيها، ضمها إلى صدره: غاليتي لا

تخافي إني أعاني من نقص في السكر وهذا مرض يصيب الشيوخ، إن القليل من السكر الذي تناولته سيعيد لي نشاطي، لا تجزعي صغيرتي الغالية.

منذ سنوات طويلة وهو يعيش وحيداً لا أحد يؤنس وحدته ، لا أحد يرعاه منذ أن غادرته حلا أحس بفراغ كبير، عاش محروماً من ذلك الحنان والحب الذي كانت تغمره به، وها هي طفلة صغيرة متوحدة أتى لعلاجها هي الآن تعالجه وتعوضه عن كل ذلك الحب والحنان الذي كم يفتقده، أصبحت جزءاً من حياته، عندما يتخيل ذلك اليوم الذي ستغادره هي أيضا يحس بصقيع يسري في أطرافه، لم يعد يستطيع العيش وحيداً، كل الذين يحبهم يغادرونه يوماً ويرحلون.

في أحد الأيام أتته حلا، أحس بارتباكها رأى ذلك في عينيها، كأنها تريد أن تقول شيئاً لكنها مترددة.

- ما لها قطتي ليست كعادتها وكأنها تخفي عني شيئاً، إني أرى في عينيكِ أسئلة تخشين سؤالها!
- هذا ما أحبه فيك كأنك تقرأ أفكاري حسناً يا سيدي أود سؤالك ما رأيك بدكتور سعيد؟
- سعيد! ومن هو هذا السعيد؟
- دكتور سعيد طبيب المركز الذي ذهبت معك إليه عدة مرات والذي يشرف على علاجك.

ابتسم سهيل: آه ... تذكرته، ذاك العبوس لم أره مبتسماً مذ عرفته إني لأستغرب من ذاك الذي سماه سعيداً، أتودين رأيي به من الناحية المهنية أتشكين من شيء وتودين مراجعته.

- دكتور منصور إني أسألك عن رأيك بشخصه.

سألها بتهكم:

- وهل تودين مصاهرته ؟
- كنت أعرف أنك ستسخر مني انسَ ما سألتك.
- أسخر منك معاذ الله لكني لم أعرف لماذا تسألين.

- لقد طلب مني عندما زرناه آخر مرة أن أعطيه رقم هاتفي قال لي إنه يود التعرف عليّ أكثر.

كان يبدو من صوتها وحركاتها وذاك الخجل الذي ورَد خديها أنها معجبة به قال لها: وما المانع إن كنت تودين ذلك.

- إني خائفة ... ما رأيك أنت هل أعطيه رقم هاتفي طلب مني أن أتصل به.

ضحك سهيل:

- حلا لا بد لنا أن نواجه مخاوفنا كي نتخلص منها وقد قلت لك مراراً، ليس كل الناس سيئين هناك الطيبون منهم يستحقون أن نحبهم وأن يحبونا، لقد ولدنا بالفطرة اجتماعيين، وكلما اتسعت شبكة علاقاتنا وتعددت تجاربنا زدنا نضجاً ووعياً، كيف لنا معرفة الآخرين إذا لم نقترب منهم، فما المانع أن تعرفيه أكثر، اسمعيه وأنت من سيقرر أي رجل هو.

كان سهيل يريدها أن تتخلص من ذلك الخوف من الرجال يريدها أن تقتحم عالمهم كي تعرفه أكثر لتستطيع أن تميز الخيرين منهم من الأشرار.

لم يتوقع سهيل أن تتطور علاقاتها مع سعيد بهذه السرعة، بدأت تحكي له عن أحاديثها معه عبر الهاتف، وعن تلك النقاشات التي تدور بينهما، لاحظ أن إعجابها به يزداد يوماً بعد يوم إلى أن سألته يوماً عن رأيه بخروجها معه فقد دعاها للقاء بإحدى المقاهي القريبة، شجعها سهيل وأنهى ترددها في قبول تلك الدعوة، عادت يومها والفرح يشع من عينيها، حدثته طويلاً عما دار بينهما، أخبرته أنه أبدى إعجابه بها وطلب منها تكرار هذا اللقاء، لقد كان بادياً عليها أنها كانت تخفي شيئاً ما، لم تقل له أنه باح لها بحبه، وهي أيضاً أحبته، فلقد كانت تخشى أن تجرح مشاعر سهيل، هي تعرف أنه هو من يحبها، احتارت كثيراً بنفسها، وهي أيضاً تحبه فكيف لها أن تعيش تلك المشاعر مع سعيد أيضاً، من المؤكد أن سهيل كان متفهماً لتلك الحالة فهو الخبير في فهم النفوس البشرية، له القدرة على التحليل، هو يدرك أنها بحاجة لحبه يعوضها عما

فقدته من حنان الأم التي فقدتها منذ فترة قصيرة، كانت قربه، كم كان يشعر بالذنب لأنه هو السبب بعدم استطاعتها أن تكون قرب أمها بأيامها الأخيرة كانت تلازمه فهي الوحيدة من تبقى لديه من كل الذين يعرفهم حتى أهله، لم توافق على تركه وحيداً، لذا فهو أصبح يرعاها ويحنو عليها كحنو أم على طفلها الوحيد كان يعمل أي شيء لإسعادها، يخاف عليها من أي سوء، يعاملها أحياناً كطفلة صغيرة يطعمها بيده، تغضب أحياناً عندما ينسى أن يحضر لها معه الشوكولا التي تحب، وكطفلة صغيرة تقف عارية بين يديه لتستحم بأحداق عينيه، قالت له يوماً إنها تشكر ربها لأنه عوضها عن حنان أمها ورعايتها، تسأله أحياناً عن أمور نسائية تخجل معظم الفتيات عن سؤالها لأمهاتهن، تلك العلاقة بين سهيل وحلا عصية على الفهم، تختلط فيها كثير من المشاعر لتتوحد بحب لم يسمعه أو يشاهده أو يقرأ عنه أي بشر.

يعزو فرويد جميع حالات الأمراض النفسية إلى الدافع الجنسي ربما يكون متطرفاً في أفكاره لكنه يصيب في معظمها، ذاك الكبت الجنسي الذي كانت تعانيه حلا طوال سنين مراهقتها إلى هذا الحين والذي سببه لها ذاك الخوف من تلك الليلة عندما تعرضت للتحرش بطفولتها جعلها تخاف الرجال وتخشى الاقتراب منهم، تحس برغبة لكنها تكبتها لأنها تخشاها وتشمئز منها، إلى أن تعرفت على سهيل، الحب الذي جمعها به جعلها تجتاز عقدتها، بدأت تحس بأنوثتها بنوع من الراحة بعد أن بدأت تتخلص من ذاك الكبت الذي كانت تعيشه، لكن تلك الحالة عندها ولدت لديها نوعاً من التناقض داخلها فجزء منها يرفض مثل تلك العلاقة الجنسية ويخشاها وجزء منها يحتاجه ويشتهيه وهذا ما يفسر ردود أفعالها العصبية في كل مرة تنتهي فيها من ممارسة تلك العلاقة هذا ما دفعه لتشجيعها وإنهاء ترددها، إذ لاحظ أن لديها رغبة في التقرب من سعيد أكثر، شجعها أن تبادله حباً بحب فقد بدأ يتأكد أنها تحبه كثيراً، في إحدى المرات طلب منها سعيد أن يزورها بغرفتها، حاولت أن تقنع سهيل أن تلك الزيارة عادية جداً وقد

طلب منها ذلك كي يتعرف على عالمها عن قرب، رفضت توقعات سهيل عندما قال لها لا يطلب رجلٌ هذا إلا طالباً مزيداً من الحميمية في العلاقة، أنكرت معرفتها بذلك ورغبتها به خشية على جرح مشاعره، لكنه أقنعها بضرورة خوض تلك التجربة مع إنسان تحبه، وبالنسبة له أكد لها أنه ليس لديه أي مانع، أكد لها أن سعادتها هي سعادته، نصحها بخوض هذه التجربة، فبها سوف تتخلص من عقدتها، تتخلص من ذاك التوتر الذي يصيبها، في الليلة الأولى التي قضتها مع سعيد بغرفتها، أحس سهيل بمرارة وألم لم يشعر بهما يوماً، قضى ليلته بأكملها ساهراً، يجوب أنحاء غرفته ذهاباً وإياباً، يتخيلها عارية بين ذراعي سعيد تقول له نفس كلمات الحب التي كانت تسمعها له وحده، صوت تنهداتها كأنه يسمعها الآن كمطارق تدق في أذنيه، تخيله مستعمراً يغزو أماكن مقدسة لديه، شعر بنيران الغيرة تحرق أحشاءه لتصل إلى خلايا دماغه، ليسقط وسط غرفته مغشياً عليه، بقي على هذه الحالة بعض الوقت إلى أن عادت حلا لتراه مرمياً على الأرض صرخت مستنجدة بعاملي الفندق، تذكرت دكتور سعيد الذي لم يبتعد كثيراً عن الفندق، اتصلت به ليعود، كان منظر سهيل مرعباً، كان ينزف من أطراف أصابعه ومن عينيه، نقلوه إلى المشفى ليرقد هناك عدة أيام، أخبرها الأطباء أن العناية الإلهية أنقذت سهيل فلقد ارتفع ضغطه كثيراً ولو أن ذلك النزيف الخارجي كان بالدماغ لكانت نهايته، عدة أيام قضاها سهيل فاقداً الوعي، كلما استيقظ يراها جالسة قربه والدموع في عينيها والرعب بادٍ على وجهها، يحاول أن يطمئنها لكنه لا يستطيع الكلام في اليوم الثالث، استيقظ من غيبوبته رآها نائمة على مقعد قرب سريره، أمسك بيدها نادها:

– حلا حبيبتي.

انتفضت عندما سمعته فقفزت نحوه ضمته إلى صدرها وهي تبكي:

- دكتور منصور ما الذي أصابك ، أرجوك انهض لقد خفت عليك كثيراً أرجوك لا ترحل وتدعني وحيدة كما فعلت أمي ، ضمها إلى صدره بقوة

- حلا، لا تخافي حبيبتي صدقيني سأعيش طويلاً، سأعيش إلى ذلك اليوم الذي أزورك في بيتك كما وعدتك لأرى أولادك الأشقياء وزوجك الغبي ولأرى مؤخرتك التي ستكبر حتى تصبح كمؤخرة الفيل.

نهضت وابتسامة تعلو شفتيها والدموع ما تزال في عينيها لتزيدها جمالاً وروعة

- دكتور منصور قم انهض أرني همتك وأنا واثقة أنك ستعيش لترى أولادي وأولاد أولادي .

- ولأرى مؤخرتك الكبيرة أيضاً.

- ومؤخرتي أيضاً، المهم أن أراك بصحتك وعافيتك.

- سأنهض لكن بشرط أن تناديني باسمي، كم أتمنى ذلك، لا أسمعك تناديني إلا دكتور منصور.

نظرت بعينيه وكل جمال العالم في وجهها وبصوتها الملائكي قالت بلهجتها التي تعرف كم يحبها:

- يا ولد يا سهيل بحبك بحبك كتير.

عاد ليضمها:

- وأنا أيضا أحبك رغم أني أعرف أنك دجالة كبيرة.

- وأنت مفتري كبير.

كان سهيل يدرك أنها ستغادره ذات يوم ويدرك أيضاً أن علاقتها بسعيد لن تدوم، تكررت زيارات سعيد لحلا في غرفتها عدة مرات، في بادئ الأمر توقعت حلا أن تلك الوعكة الصحية التي أصابت سهيل سببها تأثره وغيرته من علاقتها بسعيد لكن سهيل أقنعها بغير ذلك قال لها

إن سبب ذلك تلك الظروف التي يتعرض لها وكبر سنه سبب تلك الوعكة، شجعها بالاستمرار بعلاقتها مع سعيد لأنه رآها سعيدة بتلك العلاقة، ولكنها حينما أخبرته أنها رضيت بتلك العلاقة مع سعيد لأنه طلب منها الزواج حذرها سهيل بأن لا تثق بعرضه هذا كي لا تصطدم به إن لم يفِ بوعده ، كان سهيل يدرك تماماً أن سعيد لا يربطه بها سوى علاقة جنسية فقط، أقنعها أن تعتبر علاقتها بسعيد تجربة تستمتع بها لبعض الوقت، وعدته ألا تعلق آمالاً على عرضه بالزواج، كان يخشى عليها تلك الصدمة إذا اكتشفت كذب سعيد ذات يوم، كان متأكداً أنها نزوة بحياة سعيد صدمة كهذه ستؤثر عليها كثيراً لأنها رقيقة المشاعر والأحاسيس.

تلك الفترة كان سهيل يكتم ذاك القهر والألم الذي يعيشه إذ بدأ يحس أن حلا تبعد بمشاعرها عنه، أحس بذلك من البرود الذي أصاب علاقتهما ، غيرته وكل تلك المشاعر التي كانت تعذبه وخوفه من أن يفقدها، دفعته أن يطلب الزواج منها، لكنها رفضت ذاك العرض، كان لديها سبب قوي كان من المفترض أن يفكر فيه، فهي في ربيع العمر وهو في خريفه.

لم يدرك كثير من الأهل أن الأطفال وفي مراحل مبكرة من أعمارهم يملكون ذاكرة قوية يختزنون في ذلك الدماغ البشري الصغير كماً كبيراً من الصور والذكريات تنطبع في ذاكرتهم كصور فوتوغرافية، تختزن في اللاوعي عندهم لتظهر أحياناً في عقلهم الواعي لتحدد أحياناً شخصيتهم وسلوكهم.

أما عالم الصغار فعالم عجيب يصعب فهمه وتحليله، لأننا نحن الكبار نفتقد تلك اللغة التي يفهمها الصغار، فمن الصعوبة بمكان أن توصل إليهم بديهيات تعرفها، كيف لك أن توصل معلومة بسيطة تكون لهم عصية على الفهم.

في إحدى المرات كان سهيل يعالج طفلاً يعاني حالة من الميول العدوانية، طفل عنيف لدرجة أن أطباءه رأوا ضرورة عزله، التقاه في إحدى نوبات هياجه في حديقة المشفى، كان القمر بدراً والسماء صافية ومنظر القمر رائعاً فعلاً، كان هذا الطفل يصرخ يحطم كل ما يجد حوله، يمد يده نحو السماء يريد أن يطال القمر، لم يستطع أهله وجميع الأطباء حوله أن يقنعوه أن مسافة كبيرة تفصلنا عن القمر ومن المستحيل الوصول إليه، طلب منهم سهيل إحضار وعاء كبير من الماء وضعه على الأرض لتنعكس صورة القمر على سطح الماء نادى الطفل قائلاً له هاك ما تريد إنه القمر أصبح بين يديك، مد الطفل يده إلى الماء تشوهت صورة القمر المنعكسة، كرر محاولاته إلى أن غضب، ضرب الماء بشدة مبللاً وجهه وثيابه، انتفض لبرودة الماء، ضحك وبقي يلعب في الماء ويتمرغ بها حتى هدأت ثورة غضبه.

إن حب سهيل للأطفال وتعاطفه معهم يجعله أحياناً يبكي لبكاء طفل، رغم كل الحالات التي عالجها، كانت حالة رغد رغم تعلقه بها، كانت حالة عصية على الفهم صعبة على العلاج. ذات يوم هرع نحوها مسرعاً عندما سمع صراخها، كانت تصرخ بشكل هستيري وتبكي ترجف من خوفها وهي تشير نحو غرفة الغسيل حيث كانت قطتها، دخل سهيل ليرى ذلك القط يرتقي ظهر

القطة، والقطة تموء بصوت يشبه الصراخ، ظنت رغد أنه يحاول إيذاءها، كانت تصرخ وتشير إليها وهي تجر سهيل من ثيابه كأنها تطلب منه أن يخلص قطتها، عندما حملها ليهدئ من روعها وليبعدها عن هذا المنظر، كانت ترفض الخروج وتصرخ تشير إليها تطلب منه إنقاذها حتى أنها أنشبت أظفارها في عنقه وهو يحاول تهدئتها، لحظات خرجت القطة تتبختر وخلفها القط متثائباً، جلسا بهدوء ، ضحك سهيل وهو يقول لها انظري لم يكن يؤذيها، كانا يلعبان أرأيت كم هي فرحة ، انظري كيف تنظف نفسها بلسانها، هدأ من روعها وهي تنظر إليهما بعينين تملؤهما الدموع تشعان اندهاشاً لما رأته وجسدها مازال يرتعش، بأية لغة تستطيع أن تشرح لتلك الطفلة هذه العلاقة، وكيف تطلب منها فهمها، وما سبب ذاك الرعب الذي أصاب رغد عندما رأت ذلك المنظر، لحظات وهو يهدئها، بدأ يشرح لها أن ما رأته نوع من اللعب تمارسه الحيوانات كي تنجب الصغار وذاك الصراخ الذي سمعته من لولو هو بمثابة الضحك لدينا نحن البشر إذ أنها فرحة باللعب مع القط فالقطط لا تضحك مثلنا، أؤكد لك أنه لم يكن يعذبها أو يريد إيذاءها، أرأيت كيف خرجا بعد قليل، ألم تشاهدي كم كانت هادئة ومطيعة ، أرأيت إنها تحبه ويحبها، نظرت إليه باستغراب وهي تشير إليه فهم سؤالها، ضحك وقال لها: نحن أيضاً الكبار نلعب مع بعضنا كي ننجب فأنا لعبت مع زوجتي وأنجبت ابنتي والدة رئدة، وابنتي أيضاً لعبت مع زوجها لتنجب رئدة، وأنت أيضاً لم تنجبك أمك إلا بعد أن لعبت مع والدك، بعد أيام سترين لولو قد أنجبت عدة قطط صغار كما حدث من قبل لقد أحببتهم وستحبين كثيراً أولادها الجدد، كانت تنظر إليه بدهشة وكأنها غير مصدقة ما يقول قفزت في حضنه وذهبت تراقب قطتها وصاحبها من بعيد لتراهما نائمين بسكينة وهدوء، بعد مغادرتهما جلس سهيل يفكر عن سبب ردة فعلها هذه، لابد وأن سبباً ما جعلها تصاب بكل هذا الرعب، تذكر سهيل تلك الحادثة التي رواها له رشاد، كيف أنها أبعدت يد والدها تمنعه من لمس أمها عندما كانا عنده في العيادة لم يستطع

سهيل الانتظار، اتصل بوالدها طالباً منه الحضور وحيداً ولأمر هام حاول والدها أن يعرف سبب إصرار سهيل لحضوره بعد أن كان عنده منذ قليل.

احتار سهيل كيف يبدأ مع والدها، وهل سيتفهم تلك الأسئلة الغريبة التي سوف يطرحها عليه، وهو ذاك المتخلف الغبي، كان سهيل يستنكر أنه أب لتلك الملاك، سأله سهيل عن علاقته بزوجته، استغرب سائلاً وما علاقة هذا بحالة ابنتي، احتاج سهيل الكثير من الجهد ليفهمه أن الأبناء يتأثرون بالوسط الذي يعيشون فيه وخاصة من ذويهم.

ذاك النجاح النسبي الذي حققه سهيل في علاج ابنته أعطاه كثيراً من الثقة بسهيل، هذا ما دفعه أن يفشي له بأسرار أخفاها عن الدكتور رشاد أخبره أنه يضرب زوجته وبإحدى المرات أدماها ما اضطره لنقلها إلى المشفى. سأله سهيل، هل كان هذا أمام رغد أجابه، إنها شاهدت تلك الحادثة لكنها صغيرة لا تعي شيئاً لم تكن أكملت السنتين من عمرها، سأله أيضاً هل كانت رغد تشارككما أنت ووالدتها غرفة نومكما، أجابه إنها لم تقبل النوم بغرفة أخواتها إلا بعد بلوغها الثلاثة أعوام، وحين سأله هل كنت تمارس الجنس مع زوجتك بوجودها، استنكر هذا السؤال أبدى استغرابه بعلاقة هذا الموضوع بحالة ابنته، أكد له سهيل أن كل تلك التفاصيل تساعد في التعجيل بشفائها، أخبره أنه كان يقوم بهذا عندما تكون نائمة، لكنه انتفض غاضباً عندما سأله سهيل هل زوجتك من النساء اللواتي يصرخن أثناء ممارستهن الجنس، قال له إن تلك الأسئلة من صميم خصوصياته وليس من اللائق أن يسأل فيها، حزن سهيل على حالة تلك الطفلة وجهل هذا الوالد الأحمق جعله يثور غاضباً ليصرخ في وجهه قائلاً: أتعلم يا سيدي أنك وزوجتك الجاهلة سبب في حالة تلك الطفلة المسكينة، إن ما كانت تشاهده منك أنت وأمها أثناء متعتكما الغبية ومعاملتك لأمها بعنف كرّس في ذهنها أنك حيوان مفترس تشكل خطراً عليها وعلى والدتها وهذا ما جعلها ترفض التواصل مع محيطها وتخشى النوم وتخشى الظلام، أتذكر ذلك اليوم أثناء

وجودك عند الدكتور رشاد أتذكر كيف منعتك من لمس والدتها، أنا على يقين أن هذا الموقف تكرر مراراً في حياتكم اليومية، لكنك لم تعره أي اهتمام، لأنك لم تدرك أن الأطفال يرون ويحللون ويفهمون في مراحل مبكرة من أعمارهم، هل تعلم أن تلك الطفلة التي أنجبتها تفهم وتدرك وتحس أكثر منك أنت والدها. عندما رأى والد رغد انفعال الدكتور سهيل وغضبه أحس بالذنب، اقتنع فعلاً أنه سبب في تلك الحالة التي تعيش ابنته بها، كان متأكداً من صحة كلام الدكتور سهيل، فكم من المرات كانت رغد تجري لتفصل بينه وبين والدتها حين تراه يود مداعبتها، تذكر ذلك الرعب الذي أصابها وهي طفلة صغيرة وكيف تعلقت بأمها حينما نقلها إلى المشفى بعد أن أشبعها ضرباً، لذا بقي صامتاً خلال ثورة الغضب التي أصابت الدكتور سهيل، طلب منه سهيل أن يعود لزيارته فهناك توصيات يجب أن يوصيه بها ليعمل عليها عله يساعد قليلاً في شفاء ابنته.

ذاك التقدم الذي أحرزه سهيل بعلاج قديسته الصغيرة وذاك الرباط الذي بات يجمعهما جعله يهتم بأمرها أكثر، حتى والدها بعد ذاك الدرس القاسي الذي تلقاه وشعوره بالذنب، وذاك الحب الذي رآه من سهيل لابنته، أبدى موافقته على بقائها عند سهيل لأيام متتالية، شجعه ذلك عندما أخبره سهيل بأنه وظف خادمة لتساعده على العناية بها.

وجود رغد ملأ حياته كلها، أعادت له دفء الأسرة الذي افتقده منذ سنين، اعتاد على تفقدها عدة مرات أثناء نومها، أعادته لتلك الأيام حين كانت ابنته في سنها، يقضي ساعات طوال باللعب معها، تقفز على ظهره تعبث بلحيته، تجلس فوق صدره لتعبث بعيونه تطلب منه فتح فمه مقلدة الأطباء حين يفحصون مرضاهم، كانت تطلب منه ما تريد من خلال إشارات باتت تتقنها جيداً تتواصل فيها مع الآخرين، وهذا مؤشر إيجابي يدل على شعورها بالأمان وتخلصها من عقدة الخوف من حولها، ساعده في ذلك التقدم حفيدته التي كانت قربها، فقد طلب

من ابنته الحضور للبقاء عنده عدة أيام، شرح لها حالة رغد وضرورة وجود رئدة قربها والتي بدأت ألفة عجيبة تربطهما، لاحظت ابنته ذلك من خلال الاتصالات التي كان والدها يطلب فيها رئدة لينقل لها ما تريد رغد إخبارها به بإشاراتها المضحكة اعتادت رغد أن تطلب من رئدة أن تنادي جدها بطريقتها التي كم كانت تضحكها، إذ أنها تناديه عندما يكون بغرفة أخرى، جدو سهيل ... جدو سهيل، وتبقى تكررها حتى يأتيهما مهرولاً ليضحكهما، ليت هذه الأيام تدوم طويلاً كان شبح الوحدة يطارد سهيل ويؤرق نومه، بعد عودة ابنته وحفيدته إلى بيتهما، وفي أحد الأيام كانت الخادمة خارج المنزل، كان سهيل عائداً من إحدى الندوات التي دعي إليها لإلقاء محاضرة فيها، كان مرهقاً، انتابته إحدى نوبات السكر، سقط على بلاط المطبخ، سمعته رغد هرعت إليه مسرعة، لحظات فقد فيها وعيه تماماً، استيقظ بعدها على صوت ملائكي يناديه ، جدو سهيل ... جدو سهيل، ويد صغيرة تشده من قميصه تحاول إيقاظه، أحس بطعم السكر بفمه فتح عينيه لم يصدق ما سمعه، إنها رغد تناديه بصوتٍ باكٍ ملؤه الرجاء، جدو سهيل استيقظ ، لم يستطع كبت عواطفه أجهش بالبكاء ، ضمها إلى صدره وهو يقول قديستي الصغيرة ، أشكر الله أني سمعت صوتك ، تكلمت أخيراً نظر إليها مسح دموعه وهو يضحك: أيتها الشقية أتحرميننا من هذا الصوت الجميل كل تلك الفترة ، سأعاقبك على ذلك ، أرادها أن تتكلم ثانية ليتأكد مما سمعه قال لها: من وضع كل هذا السكر في فمي، ربما القطة الشقية لولو من فعلها، أشرقت عيناها بالفرح عندما رأته استعاد وعيه، جاوبته ضاحكة: بل أنا من وضعه في فمك لقد خفت عليك كثيراً، ألم تقل لي بأنك لم تعد تتركني وحيدة، ضمها إلى صدره وقال: هذا ما سأفعله أعدك بذلك، لكن بشرط يجب أن نتصل بوالدك تطلبين منه الإذن بالبقاء هذا اليوم أيضاً لكني لن أقوم بدور المترجم لك بعد اليوم ستحدثينه بنفسك، أشارت برأسها موافقة : سأفعل ما طلبت.

عندما سمع والدها صوتها عبر الهاتف، صعقته المفاجأة، لم يقل شيئاً، دقائق كان يقرع باب منزل سهيل بإلحاح، عندما رآها ركع على الأرض أمامها يريد سماعها، لم يصدق أنها هي من حدثته عبر الهاتف، سألها: صغيرتي رغد ماذا طلبت مني على الهاتف، نظرت إليه مبتسمة لقد كان الفرح يغمرها أيضاً عندما علمت أنها قادرة على الكلام، قالت له: طلبت منك البقاء عند جدو سهيل، ضمها إلى صدره باكياً وهو يقول: أخيراً سمعت صوتك طفلتي الغالية، شكراً إلهي سأوفي بنذري سأصوم عدة شهور، سأطعم كثيراً من الفقراء، كلا سأطعم كل الفقراء بل سأطعم حتى الأغنياء، كان سهيل يراقب هذا المنظر الرائع، أحس بلا جدوى للعالم كله وبكل ما فيه، لا قيمة له ولا معنى بدون الحب، فهو الدواء لكل أمراض العالم، دواء لكل عقده ومآسيه، أين هي حلا الآن كي ترى صحة نظريته أين هي لترى وتتأكد أن حبه لها من أعادها لعفويتها، أعاد لها ثقتها بنفسها، أعاد لها جمال الروح، أين هي الآن لترى تلك القديسة الصغيرة كيف عادت إلى موكب الملائكة الذي تنتمي إليه، لم يشفها من مرضها سوى الحب، أين هي حلا الآن ليقول لها هاكِ تلك السنبلة التي حدثتك عنها والتي ستملأ الأرض سنابل حب وعطاء، أليس الحب من أعادها إلى حضن أهلها آمنة لا تعرف الخوف، أليس الحب من جعلها تفهم ما حولها، وهومن لون عالمها الطفولي لتراه أجمل، آه منكِ حلا لماذا كلما أحتاجك أراكِ تبعدين أكثر!!

بعد أن تشافت رغد تماماً، أصر والدها على دعوته لحضور حفلٍ أعد له وبناء على طلب رغد وتوسلاتها وبكائها بعد أن علمت أنه سيعود إلى دياره، قبل سهيل الدعوة رغم أنه كان يخشى لحظات الوداع ويتجنبها.

أيام مرت وسهيل وحيداً، كم كان يخشى هذا اليوم، نظر إلى وجهه في المرآة، رأى آثار الشيخوخة بادية عليه، وجود رغد قربه كان زاداً له في شيخوخته، كانت تمده بطاقة وحيوية تجعله مقبلاً على الحياة ويحب كل شيء فيها، يومان فقط كبر فيها آلاف الأعوام، ساعات الليل

بدت طويلة وطويلة، بدأ يحس بصقيع يسري في عروقه، قضى ليلته نائماً في سرير رغد، رائحتها مازالت عالقة فيه، رائحة الياسمين رائحة أمه وعبير حلا، ما الرابط بينهن، لماذا كل واحدة منهن تذكره بالأخرى، إنه ذاك الحب وذاك الحنان، ذاك الحب المقدس الذي لم يشعر به من سواهن تذكر تلك الليلة التي أرق فيها عندما سافرت حلا وتركته وحيداً لزيارة أهلها لم يستطع النوم، لم يشعر بنفسه إلا وهو بغرفتها يلقي بجسده المتعب فوق سريرها لينام كطفل يضم ثوب أمه يستنشق منه عبير حنانها.

إلى أين سيعود الآن ؟! إلى وحدته، إلى سجنه المظلم، من سيرعاه ويؤنس وحدته؟ من سيناديها إن احتاج لقليل من السكر وعجز عن الوصول إليه؟ من ستضع الزهور فوق رأسه وهو نائم؟ تذكر حلا وتذكر رغد انهمرت دموعه لتغرق وسادته.

في صباح اليوم المحدد لسفره، كان عليه الذهاب لحضور حفلة الوداع التي أعدتها له رغد، دخل المنزل الذي كان يبدو عليه التواضع ، ليس كما تصوره من حديث والدها، أخبره أنه تاجر ثري يملك العديد من الشركات.

استقبله والدها بكثير من الحفاوة والترحاب، تفاجأ بوجود زميله رشاد، أصر على الحضور ليشكره ويودعه، لم تفارق رغد حضنه لحظة واحدة ، تسأله إلى أين سيسافر وهل سيذهب ليرى رئدة، وهل سيعود لزيارتهم؟ كانت تتكلم وتتكلم كأنها تريد تعويض كل سنوات الصمت التي عاشتها.

بعد قليل دخلت سيدة أنيقة المظهر، لم يستطع تمييز ملامحها جيداً للوهلة الأولى، عندما اقتربت عرفه عليها والد رغد قائلاً: زوجتي حلا والدة رغد، انتفض سهيل عند سماعه الاسم، نظر إليها إنها حلا، أحس بخدر في أنحاء جسده، لم يستطع الكلام، أمن المعقول أن حلا والدة رغد، وأين هي كل تلك الفترة، لماذا لم تكلمه، لماذا لم تخبره أنها أم تلك القديسة

الصغيرة؟! هي تعرف من كان يعالج ابنتها، فهي من رشحه لعلاجها كما أخبره رشاد أحس وكأن الأرض قد توقفت عن الدوران، اختلطت الأصوات في أذنيه لتصبح كقرع النواقيس، رحب بها بكلمات مقتضبة، كانت تحدثه وكأنها تراه أول مرة، شكرته بعبارات منمقة، وأعطته ظرفاً كانت تحمله بيدها.

- دكتور منصور أشكرك كثيراً لتلك الخدمة التي قدمتها لنا، كنا متأكدين من قدرتك على شفاء ابنتنا الصغيرة لكثرة ما سمعنا وقرأنا عنك.

كل هذا لم يكن سهيل يجرؤ على النظر في عينيها لكنها عندما وضعت النقود أمامه، نظر إلى عينيها بتحد، لم يجد أثراً لذاك البريق الذي عهده بها، لم يرَ سوى نظرة باردة غبية جعلت الصقيع يسري في عروقه ، خاطبها وهو ينظر بعيونها:

- سيدتي فلتعلمي أن هناك أشياء كثيرة لا تستطيعين الحصول عليها بأموال الدنيا كلها، لم يشفِ ابنتك سوى الحب وهذا الحب ليس عبارة عن فرمونات تباع معلبة في الصيدليات إنه ينبع من ها هنا مشيراً إلى قلبه، تؤيده عقولنا ليصبح إيماناً نشفي به عقدنا، نشفي به كل أمراضنا.

نهض معتذراً لتأخره عن موعد سفره، ودعهم، تركهم وسط حيرة لما قاله ولما أصابه من ارتباك، عاد لمنزله ألقى بجسده المثقل لم يستطع التفكير، تشابكت الأفكار برأسه، آلاف الأسئلة تدور فيه، غلبه النعاس فنام.

في اليوم التالي اتصلت حلا بالدكتور رشاد تطلب منه رقم دكتور منصور، أخبرها انه لم يسافر فهو بعد مغادرته بالأمس نقلوه إلى المشفى لسوء حالته الصحية صرخت عبر الهاتف جزعة: أدخل في غيبوبة السكر أم أن ضغطه عاد إلى الارتفاع وكم بقي غائباً عن الوعي من المفترض ألا يطول في غيبوبته، أكان وحيداً، وبأي مشفى هو؟ دهش دكتور رشاد لمعرفتها بحالته وبذاك القلق الذي بدا عليها وخوفها عليه. أقفلت هاتفها وجلست في غرفتها وحيدة،

أجهشت بالبكاء، استغلت عدم وجود زوجها كي تسأل عن سهيل، لكنها فجأة توقفت عن البكاء جففت دموعها وبتصميم بدا بذاك البريق الذي عاد إلى عينيها، خرجت متجهة لرؤية سهيل غير آبهة بزوجها غير آبهة بالدنيا كلها، ستذهب إليه تخبره أنها لم ولن تنساه لحظة واحدة، ستخبره كم انتظرت ذاك اليوم الذي يأتي لزيارتها كما وعدها ليرى أولادها، لتنعم بلمسة يديه الحانية، لتخبره أنها كم تتوق لضمه إلى صدرها، لتخبره كم هي بحاجة إليه، للبكاء على صدره تشكو له همومها، تخبره كم هي مشتاقة للسير معه تحت المطر، مشتاقة لفنجان قهوته، لتخبره بتلك المعاناة التي تعيشها مع ذاك الزوج بل ذاك السجان الظالم الذي يغار عليها ويشك بكل تصرفاتها، كم تود أن يعالج كل تلك الجراح في روحها، لتخبره أنها لا تؤمن إلا بطريقته، العلاج بالحب، لتخبره كم من الليالي تناجيه بسرها، كم تمنت الذهاب إليه لتودعه جزءاً من قلبها، ابنتها رغد، لتقول له تلك من أوصيتني بإنجابها، إنها تشبهني كما تمنيت هاك خذها كن أباً لها مثلما كنت لي أماً وأباً وحبيباً ذات يوم، أنت وحدك من يستطيع أن يعيد لها فرحها الطفولي أنت وحدك بحبك وبقلبك الكبير من يستطيع أن يحول ذاك الخوف في روحها إلى أمان ويعيد روحها نقية مشعة كالشمس.

عند وصولها باب غرفته في المشفى أوقفها أحد الأطباء يسألها عن صلة قرابتها بالدكتور سهيل ، أجابته دون تفكير إنه شقيق ... شقيق روحي، دهش لإجابتها خاطبها معتذراً: سيدتي أبدي أسفي الشديد لتأخرك فالدكتور سهيل منصور فارق الحياة منذ ساعات جراء نزيف حاد في الدماغ.

حين رأته لم تستطع البكاء وكأن الدموع تحجرت في عينيها، أمسكت بيده كانت باردة كالثلج، انحنت لتقبله من شفتيه قبلة طويلة، فلقد تذكرت ما قاله لها ذات يوم، إن مت أنتِ

وحدك وبقبلة منك تعيدني للحياة من جديد، كما فعلت أوزيس مع أوزريس، كانت تأمل أن يكون صادقاً بما قاله، فلم يكذب عليها يوماً.

عند خروجها رأت الدكتور رشاد بانتظارها، ناداها قائلاً: مدام حلا أوصاني الدكتور سهيل أن أعطيك هذا لتعلقيه بصدر ابنتك رغد وألا يفارقها أبداً، وضع بيدها أيقونة للعذراء، تذكرتها، إنها تلك الأيقونة التي طوق بها رقبتها ذات يوم أخبرها أنها ستحميها بغيابه، أوصاها ألا تفارقها أبداً لكنه وجد تلك الأيقونة المقدسة بالنسبة إليه مرمية على الأرض في غرفته فقد نسيتها في ذاك اليوم الذي أتت به لوداعه.

مصر – القناطر ٢٠١٢

دكتور سهيل البارع في تحليل النفس البشرية، يضع يده على جراحها ويبريها، بات ضحية جراحه الخاصة وروحه المعذبة بين ذكريات الماضي وحالة مستعصية.

طفلة الحاضر إستحوذت على أيامه، وطيف إمرأة يؤرق لياليه.

من منهما كان بحاجة إلى الأخر هو أم هي؟ ومن منهما أدرك غايته؟

بين دفتي الكتاب أرواح معذبة هل يواتيها الحظ فتهدأ؟

علا

عمان / ٢٠١٣